سيمياء الدلالة

إذا كان التواصل اللغوي, هو أرقى أنواع التواصل عند الإنسان, فذلك يعني أنه لا يقتصر في تواصله على ذلك فقط, بل يتواصل بوسائل أخرى طبيعية وثقافية؛ ولكن المعاني التي تستند إلى هذه الوسائل والأشياء الدالة التي ترتبط بها؛ ليس بالإمكان تفسيرها ولا التعبير عنها بمعزل عن اللغة, فعبر هذه الأخيرة يمكن العبور إلى كل شيء, كما يمكن تحديد الأشياء ووصفها وبيان دلالتها ورمزيتها.

والتوجه الذي سنه " رولان بارت" Roland Barthes في مؤلفاته يرمي إلى دراسة السيميائية اللسانية وغير اللسانية, وهو في ذلك يتجاوز السيميائية النسقية والبنيوية, ويناقض ما جاء عند "دو سوسير" من أن اللسانيات جزء من علم السيمياء الذي هو جزء من علم النفس الاجتماعي, ليرى بارت عكس ذلك, وكان لكتاباته الأثر الكبير في تحديد توجهاته, وخاصة كتابه علم الأدلة أو عناصر السيميولوجيا الذي "كان بمثابة القنبلة, ويعتبر في الوقت الراهن إنجيل المنهجية السيميولوجية" ومن خلال المفاهيم التي قدمها فيه حاول أن يؤسس لنموذج يدرس الدلالة في مختلف صورها على اعتبار أن السيمياء هو العلم الذي يدرس سائر أنظمة العلامات.

فقد أخذ المقولة العامة المتعلقة بثنائية اللغة والكلام، وثنائية الدال والمدلول عن "دو سوسير "، وأخذ عن "يلمسليف" التعيين والتعبير, والتضمين أو المحتوى؛ فلكل تعبير لغوي محتوى أو مضمون, وذلك ما يميز العلامات اللغوية عن باقي العلامات الأخرى التي لا تعبير فيها, ولا تحتوي على مضمون, وهذا يقابله عند "بارت"، دال التعيين الذي يقوم في المرحلة الأولى بتعيين مدلول فيتشكل عنهما دال التضمين؛ والذي يتضمن بدوره مدلول التضمين, ويلخص ذلك في سنن للتعيين وأخرى للتضمين.

واستنادا إلى ذلك فإن القصة تتكون من سنن للتعيين أو الأسنة التي هي عبارة عن أصوات الحكي التي يتم جمعها لتعيين النص؛ وتتكون من الإرساليات اللسانية,

كما تتكون أيضا من المكتوب سلفا, أما الحكي فهو النسيج النصي؛ الذي يشكل بواسطة الحبكة واتصال الوحدات اللسانية, وهي وحدات يتم من خلالها التعيين والتحديد, وعن مستوى المضمون ينبثق دال التضمين من خلال علاقة ما هو مكتوب في علاقته بما هو ثقافي, وما هو واقعي أو خيالي.

ومن ثمة يصبح الأدب حسب "بارت" قدرة "سيميولوجية تتمثل في لعبته بالدلائل بدلا من أن يقوضها، وأن يقذف بها في آلة لغوية ليس بالإمكان التحكم فيها, ومجمل القول قدرته على أن يقيم في اللغة المستمدة ذاتها تعددا حقيقيا لأسماء الأشياء", إن اللغة استعباد لأنه ليس بالإمكان التكلم إلا من خلالها و بإرادتها، ثم بعد ذلك يتم التمرد عليها حسب تصوره فتطبع بصيغة التعدد.

ومن هنا قام "بارت" بتحديد علم السيمياء بأنه علم الدلائل مستمدا مفاهيمه الإجرائية من اللسانيات التي حسب رأيه قد تولدت عنها دراسات ومقالات وكتابات وقراءات كثيرة مما عرضها للتقويض والتفكيك لحد كبير؛ ولذلك يجب التوجه إلى دراسة اللغة وفق تصور جديد عن اللغة باعتبارها سلطة تتجسد من خلال خطاب, وأن الخطاب سلطة أخرى تجسدها اللغة, وبالتالي يشكلان شيئا لا يمكن فصلهما عن بعضهما فالواحد منهما يحيل على الآخر ويوجد به.

لاحظ "بارت" أن علم الأدلة قد تعددت نظرياته, وتداخل مع أنساق معرفية أخرى, مما أدى إلى وجوب تحديده, وبيان مجال صلاحيته واستعماله بعد أن تشعبت موضوعاته, وتنوعت مجالاته, وتباينت أنساقه, وتكاثرت على نحو تعدد الباحثين في هذا المجال, ولذلك "يسعى البحث السيميولوجي إلى إعادة تشكيل صورة اشتغال

الانظمة الدلالية غير اللغوية كتلك المتعلقة بالموضة والطعام والأثاث والمعمار" .

وتعد جهود "بارت" في هذا الشأن رائدة من خلال مؤلفاته "إمبراطورية العلامات"، أو "أنظمة الموضة", و"مبادئ في علم الأدلة"؛ هذا الأخير الذي ساهم في تطور الدلائلية اللغوية بجعلها جزءا من اللسانيات, كما تم تحديد فروعها, وكيفية

الاستفادة من عناصرها, "فالعلامة اللسانية بدالها ومدلولها هي ما يشكل النسق الدال، في هذه التمظهرات (أو الأساطير)؛ لأن كلا منها قابل لأن يترجم إلى النسق اللساني", وهذا يؤكد اعتقاد "بارت" بأفضلية النسق اللساني على بقية الأنساق السيميائية الأخرى؛ لأن اللسان هو الذي بإمكانه وصف تلك الأنساق, أو كل ما من شأنه أن يكون علامة.

وفي هذا الشأن سوف يتم التركيز على سيمياء الدلالة اللغوية أكثر من غيرها من الدلائليات الأخرى على اعتبار أن هذه الدراسة تنصب على مكون لغوي تجتمع فيه المؤشرات والرموز, وتتعدد فيه الأشياء وأسماؤها, وتقبع فيه الدلائل اللغوية وما يتصل بها من تصورات ومضامين ثقافية, وهي المكونات الأساسية لقصة الطفل؛ والتي هي أيضا مجال لمؤشرات ولدلائل أخرى؛ كأزياء الشخصيات, وأحوالها النفسية, ونمط حياتها وتوجهاتها, وأماكن وجودها وحلها وترحالها وأفعالها, وستتكفل السيميائية من هذا الباب بتفسير, ومقاربة النصوص التي كتبت للطفل, والتي يمكن أيضا أن يفيد منها البحث في مقاربة مقول الكبير نحو الطفل الصغير.

وتعتمد نظرية "بارت" الدلائلية –كما وضّح ذلك في كتابه مبادئ في علم الأدلة– على النظريات السابقة مستندا في تصوراته على المفاهيم الإجرائية التي جاءت بها اللسانيات, كثنائية اللغة والكلام, ثنائية الدال والمدلول, ثنائية التركيب والاستبدال، وثنائية التعيين والمحتوى, ومن خلال مناقشة "بارت" لثنائية اللسان والكلام وبيان النطاقات التصورية لها, من هنا تشكل لديه منظوره لعلم الأدلة؛ والذي يركز فيه على المحاور التالية: